

الرسامة غريتا نوفل توجه تحية إلى سمير قصير. وجوه شهداء على الجدران وظلال هاربة في
الشارع
مهى سلطان

معرض من عشرين لوحة لبيوغرافية ورسوم على صفحات الصحف وعمل تجهيزي واحد، للفنانة التشكيلية اللبنانية غريتا نوفل، أقامت في صالة المركز الثقافي الألماني (غوته، بيروت) بعنوان بيروت 2005، تكريماً لشهداء الاستقلال الذين ملأت صورهم جدران المدينة. والمعرض مثل قصيدة بصرية حزينة تتقاسم فيها اليد والعين مواقع الحزن والألم، في رؤية تستذكر على وجه الخصوص الكاتب والصحافي سمير قصير، في تجهيز عبارة عن فيلم 'أربع دقائق' بعنوان 'زهرة التوليب السوداء'، لأن التوليب كانت زهرته المفضلة.

إنه الجدار. ومن غيره يحمل ذكرى صور الوجوه التي غابت من الوجود ولكنها لم تغب من الذاكرة. فالجدار تحول مسنداً جديداً للتعبير والاعتراض في زمن القتل والترصص بأصحاب الرأي الحر. إنها أيضاً وجوه الشهداء التي تعرت من ملامحها، وبدأ المطر يغسلها والرياح تبعثرها والبياض يغزوها. بصارت الوجوه تمزقات انسخلت عن الحائط ولم يبق منها غير بعض الأجزاء. أكثر ما بقي هو العيون الشاحصة الينا من بعيد احلامها. فالحائط هو الملنقى الحميم والصدى المدوي لصراخ الحياة. وهو شاهد يحمل على متنه العلامات والآثار اللونية التي راحت تمحي وتذوب. ولكن ليس للحائط من ذاكرة. فالصور تنتشر وتسلخ، وخلف صورة كل شهيد شهيد آخر. لكن الموعد مع الشهادة هو موعد مع الحياة والحلم والمستقبل الجديد.

في مستهل المعرض ثمة محفورة من لطفة لونية كبيرة تستقل بمسطح تجريدي يصعب التكهن بأنها رقعة ورق منسلخة عن حائط، نراها في طبعات لونية مختلفة. من بعدها تتوقف العين أمام صور متلاصقة للشهيد سمير قصير بالأسود والأبيض معلقة على حائط، يتم النظر إليها من داخل سيارة. فالفكرة هي العبور امام جدران بيروت، التي تحيل النظر إلى صور الشهداء بابتساماتهم ونظراتهم الأسرة. لكن الزمن رهينة النسيان والصور مصيرها التلاشي. لذلك لم تكثف غريتا باللوحة والرسم الملون على صفحات الصحف بل نزلت إلى الشارع.

هكذا استطاعت غريتا نوفل أن تقبض على نفسها، أن تسجل ملاحظاتها وترسم مشاعرها وان تبوح بها نصاً وصوتاً وصورة تماماً كما تحس وتتفاعل بتلقائية مع الوقائع في زمن الحرية. ولطالما كانت بيروت موضوعاً إنسانياً لها، منذ سنوات الحرب وما بعدها في مرحلة الاعمار. فقد خاطبت المدينة وناسها وبنياتها في مراحل متنوعة من تجاربها من منظر ذاتي عميق. وبما ان الصورة هي شاهد حي، فهي حملت كاميراتها (سكوب ديجتال) وأخذت تصور في صباحات بيروت، اللاتقات في الشوارع والجدران والمارة الذي يحملون الأعلام اللبنانية. التقطت الكثير من الظلال الهاربة والمساحات المضيفة وما تبقى من عبارات وشعارات. بيروت مدينة غريبة تقول غريتا: 'أمشي على طرقاتها وانظر إلى الجدران التي تصرخ بصوت عال بعدما سقطت الخوف. صور الأموات تغطي الأحياء، صور مرشحين للانتخابات، صور مشطوبة بالسكاكين صور تمحي أمواج من الورق الأبيض، حقول من ملح وزبد. حقول. SMS نظرة تشهد، نظرة محجبة ممزقة. نقاط عيون وحيدة شاخصة الينا. أيها الجدران دافعوا عن أنفسكم، حافظوا على تلك الأجزاء من الرجال الشجعان كي تعيش صورهم وتنتصر على الزمن من أجل الحرية والكرامة.'

تترصد غريتا شاعرية الألم في مقاومتها للزمن الذي يحو الأشياء. هذا الخوف من الإحماء والتبعثر، تلتقطه بصورة فنية تتحدث عن وجه سمير قصير الذي رحل في عمر الزهور. تقول: رسم الاستاذ على اللوح الأسود لأن الكلمات وحدها لم تعد تكفي. رسم مثلثاً. كانت عيناه تلمعان بقوة. كمن يخبئ سرا. مات بعد أن سلم على أيام الزهور. امتزج دمه بالرصيف.

الفيلم على بساطته وتشفه (تقطيع وتوليف سمر مغربل)، جاء ليكطف الموضوع سريعاً ككرة تتردد في أوانها، لا سيما انه تقاطع أثناء عرضه مع ثلاث شرائح زجاجية، مما جعل الصورة الضوئية تتعكس بدورها، كي تنتقل على بقية جدران صالة العرض في ألوان رمادية زرق وبنفسجية، شبيهة في تعددها بأسلوب الطباعات الليتوغرافية. بكل طبعة في لون، وكل يوم في مزاج من الأيام التي أمضتها غريتا وهي ترسم على صفحات الصحف البيروتية وجوها لشخصيات تقوم بأعمالها اليومية. فتتغنى المقالات والمانشيتات بصورة الرجل الذي يقرأ والذي يأكل أو يخلق أو يفكر وهو يسمع الأخبار التي باتت طقساً

عاديا من طقوس يوميات اللبنانيين في زمن السيارات المفخخة وسواها من أساليب القتل والترهيب .

إنها مجرد عجالات تسعى لالتقاط الملامح السريعة والحركات العابرة التي لا تحتمل التمهّل أو التأخير. ولنن كانت رؤية العين وقوة الحدس في الرسم لاقتناص اللحظات المناسبة هي سمة من سمات غريتا نوفل، التي تحاول أن تطيل العمر القصير للصحيفة التي ترمى في آخر النهار في سلة المهملات. فلا مجال للحديث إلا عن الفورة الأولى للتعبير اللوني (الأبيض والبرتقالي) التي تبقى الرسم غالبا رهن السرعة في معرض مادته من ورق، أعد ليبتقي بذاكرة ورق الملصقات المتفشرة على الجدران .

لولا هذه الوقفات العابرة لما ظهرت لقطة هي من أشد اللقطات غرابة تجمع في منظور واحد، شبعا غامضا لامرأة تقود سيارتها وهي تنظر من النافذة إلى صور جلية للشهيد سمير قصير على الحائط .

المفارقة أن المرأة هي في الظل (الكونتر جور) وصورة الشهيد في النور .

الموضوع :عام

المصدر :الحياة
